تصدير

الذات والآخر: لعبة الإغراء والإقصاء

بين النحن (الإسلام، الشرق، العالم اللاتيني أو الإفريقي) والآخر (الغرب) إغراءات عريقة في الزمن تعود إلى الإدراكات القائمة على المتخيّل، وأيضاً إقصاءات هي نتاج المخاوف أو العداءات التي ليس لها مبدأ عقلاني أو منطقي سليم. لفهم هذه المعضلات نحاول التركيز على بعض النقاط الهامّة:

1- العلاقة هي في الغالب خيالية أو توهّمية، وكما يعترف مثلا ابن عربي في العصر الوسيط أو دريدا في العصور الراهنة، الوهم هو أشدّ وطئاً من الحقيقة، له سلطة التحكّم في التمثّلات والأفعال. فلا شكّ أن العلاقة بين الذات والآخر (الذات هي أيضاً الآخر؛ والآخر هو أيضاً ذات) تكتنفها الإلتباسات ما دامت النوايا مضمرة والإرادات غير محدّدة المعالم. فتتعامل الذات مع ما تصطنعه في خيالها حول الآخر، وليس هذا الآخر كما يتبدّى في حقيقته الواقعية. والتعارف هو السبيل الوحيد لتبديد المخاوف القائمة في الغالب على الأوهام أو التمثّلات الغامضة. لكن، أحيانا، رغم إرادة التعارف، العلاقة بين الذات والآخر تبقى علاقة صراعية لأنّ الأمر الجديد ليس هو سلطة الوهم في إدارة الخيالات أو التمثّلات أو الأفعال، ولكن إرادة الهيمنة بإبقاء الغير تحت سيطرة الذات.

2- إرادة الهيمنة مسوّغها هو الرغبة في التفوّق وضرورة أن يكون هنالك غالب ومغلوب، أو متفوّق ومتخلّف. فكلّ حضارة راقية تنشئ علاقة تراتبية أو هرمية تستعبد من خلالها ما عداها من الثقافات المهمَّشة لتنفرد بالتفوّق والقوّة في تجليّاتها السياسية والعلمية والإقتصادية والعسكرية. فمن طبع المتفوّق أن يحافظ على تفوّقه وتقدّمه المادّي والفكري، ومن طبعه أيضاً أن يتمركز لتحوم حوله الهوامش الثقافية على سبيل الإذعان والإعتراف بالشوكة والعظمة، وأن يبسط سيطرته على جميع الأطراف التي يتحكّم فيها أو يصبو إلى امتلاكها.

3- هـذا الأمـر يدفعنـا إلى تفنيـد نظريتيـن متعارضتين ولكنهما تقتسـمان السـذاجة نفسـها: بيـن من يدّعي الصـراع كهوية ثابتة بين الحضـارات لا مناص منه، لأنّه حقيقتهـا الأزلية والسـرمدية أو «جِينَتُهـا» الباطنية كما ذهب إلـى ذلك صامويل هانتغتـن لتبريـر الحروب والنزاعـات لغايـات إقتصادية أو لأهداف إسـتراتيجية وسياسـية؛ وبيـن من يحلـم بالطوبويات المسـتحيلة حـول تصالـح الديانات أو يرفـع رايـة التعـارف بين الأمم والقبائل وكأنّ المسـألة هي مجرّد عصا سـحرية يكفـي تحريكهـا ليتحوّل العالم من جحيم إلى نعيـم، كما يؤمن بذلك أصحاب التحـوّلات السـحرية أو المعجزات المسـتحيلة من أمثال «النيـو إيدج» أو أنبياء نهاية العالم.

4- لا شـكّ أنّ تعميم نظرية الصراع أو التبشـير بنظرية الوئام يحجبان حقيقة السلوك البشـري القائـم، فـي الوقـت نفسـه، علـى الإغـراء والإقصـاء، أو ما سـمّيناه في مناسبات عديدة «**اللادونية**»، أي لا ذات بدون الآخر، ولا آخر بدون الذات؛ ولا شـرق بـدون غرب ولا غرب بدون شـرق، فكلاهما في حاجـة عضوية ووجودية إلـى الآخـر، لا انفكاك عنهـا. وهذه الحاجة الماسّـة إلى مقابـل أو مثيل أو عدوّ أو مشـايع هي الأسّ أو الأصل الذي تنبني عليه العلاقات سواء أكانت صراعات أو ائتلافـات. في البدء كانت الحاجة إلى موضوع الحاجة، لأنّه على غرار المرآة يمكّن الذات من رؤية ذاتها في مجلى الآخر، والآخر يرى نفسه في مجلى الذات. ولا مراء أنّ فكرة المرآة أو المجلى تتيح فهم المقاصد أو الإرادات أو السلوكات والتي هي بطبعها نرجسية: في الوقت نفسه إغراء وإقصاء، حاجة واستغناء، رغبة في.. وتخلّي عن..، بمعنى الطابع المزدوج والفصامي للعلاقات والحقائق.

في طيّات هذا الكتاب محاور ومحطّات في العلاقة المركّبة والمبهمة بين الذات والآخـر. وأيضاً حوارات مع أقطاب الفكر الفلسـفي، الغربي منه والعربي، وحوارات مع كتّاب وروائيين في نهاية هذا الكتاب. هذا الكتاب هو طبعة جديدة للطبعة الأولى صدرت تحت عنوان **سياسات العقل** عن دار الغرب بوهران سنة 2005. أُضيفت إليها بعض الدراسات والحوارات.

د. محمد شوقي الزين

تقديم

العقل في الميزان

العقل كغيره من المفاهيم الفلسفية عبارة عن إشكال ويصعب تحديده في قالب لغوي أو مذهب فكري؛ بل هو المفهوم الأكثر إبهاما والتباسا. والامتناع عن استحضار ماهيته دفع تاريخ الفكر الإنساني إلى ربطه بالمعرفة: طبيعتها، مصادرها، مستوياتها. تاريخ العقل كان دوما نظرية المعرفة ومصادرها: الحس، العقل، التجربة، الوحي، الخ. أو يمكن القول بأن تاريخ نظرية المعرفة هو تاريخ تجليات العقل أو كيف وبأية قوة تلتقي الذات العارفة بموضوع المعرفة. مهما كانت طبيعة المصدر المعرفي (حس أو خيال أو تجربة أو وحي) كان العقل هو القاسم المشترك والفاصل الكوني الذي به يستقيم الحس ويتوحد الخيال وتنتظم التجربة.

العقل هو الحاكم وما عداه شهود. شاهد الواقع ينبئ العقل بما رآه (الحواس أو الخيال) والعقل يقيم موازين الحكم بين الصحة والخطأ أو الصدق والكذب. فالعقل بالمعنى الكانطي (إيمانويل كانط) هو أطر قبلية (صورية وكونية) تستعين بها الذات العارفة في تحديدها لهوية الموضوعات المعرفية. فكان العقل دوما قوة مفارقة اتخذت صورا متعددة: اللوغوس أو الخطاب أو العقل الكوني مع الإغريق، العقل الكلّي أو العقل الفعّال مع الفلسفة العربية – الإسلامية في العصر الوسيط، الميتافيزيقا أو علة الأشياء مع الفلسفة الحديثة (ديكارت، كانط، هيغل).

بوصفه قوة مفارقة أو أقنوما ثابتا، كان للعقل أوجهاً عملية أو ارتباطات بالتجربة الحسية أو الأخلاقية: الدين، الأخلاق، السياسة. من هنا اعتبر هيغل «إن كل ما هو عقلي فهو واقعي وما هو واقعي عقلي». فهذه المقولة افتتحت الدراسات المعاصرة حول جدلية الفكر والواقع وفي الظروف الراهنة العلاقة الملتبسة بين العقل والسياسة والتي كانت لها تنظيرات فلسفية مع هوبس ولوك وروسو في العصور الحديثة. مقولة هيغل إشكالية على أكثر من صعيد:

- هل الفكر هو الواقع بتجلياته في السياسة والاجتماع والفن؟
- هل الواقع هو الفكر في أطره القبلية والصورية على هيئة مشاريع ومثاليات وطوبويات؟
- هل بين الفكر والواقع جدلية دورية لا مخرج منها أم مطابقة اختزالية تجعل من الواقع فكر مادي وشيئي ومن الفكر واقع متخيّل ومشروع ذهني؟
- بين العقل والسياسة تواطؤ أم تقابل؟ هل من الممكن عقلنة السياسة أو تسييس العقل؟

المتأمل في المقولة الهيغلية والتباساتها النظرية ومعضلاتها الفلسفية يطأ أرضا عبارة عن دور هو أقرب إلى المصادرة على المطلوب منه إلى جدلية حيوية وخلاّقة. فما نرومه من الدراسات المجموعة هنا ليس تأملا فلسفيا في السياسة أو مقاربة سياسية للفكر من خلال مذاهبه ومؤسساته، وإنما التأمل في السياسات التي ينتهجها العقل في مقاربة الواقع: بأي مستوى مفهومي يمكننا قراءة الواقع؟ هل الواقع «واقعة» بسيطة يسهل وصفها أم «طبيعة» مركبة يصعب تحليلها ونعت ماهيتها؟

هوية العقل

العقل في اشتقاقه اللاتيني هو الحساب والتصنيف والذي يؤول مجازيا إلى العزل والتنميط ومن ثم إلى السلطة والقوة. مع انتشار التقنية وأساليب النمذجة والأطياف السبرانية والمعلوماتية، ارتدّ العقل إلى عقل أداتي قوامه الحوسبة والسيطرة شموليا على الطبيعة والإنسان. بهذا المعنى تمفصل العقل بالعلم في تطوره التاريخي. تجليات العقل في التاريخ كانت معرفية (تراكمات وثورات علمية، ترجمات، تأويلات..) بقدر ما كانت سياسية ومذهبية، حيث تمثل الحداثة والأنوار الانخراط الفعلي للحقيقة في التاريخ بواسطة المنهج والمعرفة. نرى هنا بأن العقل في مساره التاريخي لم ينفصل عن نظريات المعرفة الفلسفية والمذاهب السياسية، لأن العقل بوصفه حسابا وعقلا تصنيفيا كان يقتضي إذاً المنطق والعلم والمنهج في تنظيم المعارف وتشكيل رؤية حول الوجود تلامس الحقيقة. الحقيقة في هذا السياق هي تطابق قبليات العقل مع موضوعات الواقع.

إذا قرأنا مفهوم العقل في اشتقاقه العربي فماذا نجد؟ خلافا للعقل في أرضيته

الغربيـة والـذي كان رديف المنهـج والمعرفة، فـإن العقل في سـياقه العربي هو نتاج منظومـة فـي الأخلاق وأنظمة في القيم. العقل هـو الحجر والنهي كما تقول لنا كتب فقه اللغة وعلم الاشتقاق. هو ما يحجر الإنسان عن اقتراف المآثم وينهى النفس عن الشـهوات والقوة الغضبية والبهيمية كما تعلمنا فلسـفات الفارابي وابن سينا. لكن في الاشتقاق كنوز لغوية ومعرفية غالبا ما نصرف النظر عنها إما لأنها لا تعني شيئا على المستوى الإبستمولوجي وإما لأن الطابع الواقعي لمشتقات المصدر ع ق ل لا ترتبط بنيويا ووظيفيا بمفهوم العقل كما نحدسه فلسفيا وأدبيا وجماليا.

النسـيان الوجـودي لمشـتقات العقـل يخفـي خزائـن معرفيـة ووجوديـة كانـت بالإمـكان أن تسـاهم في تكوين تصوّر فلسـفي حـول العقل. فعندما نقـرأ في معاجم اللغة الكلاسيكية أو الحديثة أن العقل هو الدية «عقلت المقتول إذا أعطيته ديّته دراهم أو دنانيـر»، لا نـرى في هـذه الصفة مجرّد اعتبار قانوني أو فقهـي حول درء المظالم وتسليم الديّات لأهلها وإنما ثمة شبكة من التصورات والمصطلحات تصطحب وظيفة العقل نفسه: ليس العقل مجرّد مثال مفارق أو ملكة في التمييز وإنما هو وظيفة أدائية تفعل ما تقوله. إنه مقاربة حيّة للواقع ترتبط بالسياسة والمعرفة والواقع اليومي. العقل هو الديّة: في هذا التصريح ثمة تبادل فعّال بين أداء الحق وتبريـئ الذمّة.

العقـل هـو تبريـئ الضميـر برابط قانونـي وحقوقي هـو أداء الديّـة. لكن مفهوم الديّـة تصـوّر كوني ولا يرتبط فقط بالقانون والمحاسـبة والعدالة، فله خاصية إصلاح المفاسد أو المظالم وإعطاء الحقوق لأهلها باعتبار رمزي وواقعي يتخذ شكل أموال أو هدايـا أو عطايـا تخفـف الصدمـات وتـلأم الجروح. الدّيـات مواد فكريـة وعملية أصبحـت مقصد كل مطلب في السياسـة والاقتصاد والفكر والفن، فلا يمكن إصلاح عطـب أو خلل دون رابط رمزي في شـكل ديّـات وعطايا، لأن الرابط أو العلاقة هي أساسا عقل. فهذه الوسائل في الحفاظ على الوحدة العضوية لكلّ مؤسسة أو بنية أو منظومة تتخذ شكل «العقل».

العقـل هـو ما يمسـك الوحـدة العضوية للنفـس البشـرية والاجتماع الإنسـاني. تفكك الروابط النفسية يؤدي إلى خلل عقلي وتشظي الروابط الاجتماعية هو مسحوق الانفجار ومادة العنف والانهيار. فما يمسك هذه العلاقات ويقيم بينها الوحدة العضوية والحيويـة فهـو «العقل». ومنه المعقل أو الملجأ: اللجـوء إلى ما يدرأ تفكك الروابط

وانفصال الأجزاء نحو تيه وجودي أو انهيار نفسي أو اجتماعي. اتجاه العقل إلى ربط الأجزاء والحفاظ على التماسك الداخلي للعناصر والبنيات هو نوع من التشابك والتشاجر بين العلاقات والمجازات ألا نجد في الجذر **ع ق ل** أن عواقل الأمور هي ما التبس منها؟ فلا شك أن إيجاد العلاقات والتماسكات بين الوحدات المتنافرة والبنيات المشتتة هو نوع من إقرار العلاقة الإلتباسية للوحدة العضوية. فهذه الوحدة المركبة ليست مجرد وحدة مثالية أو أسطورية وإنما شبكة من العلاقات والمجازات تلتبس فيها الصور والعلامات وتتشعب منها السبل والمسارات. في دنيا العقل لا مجال للموضوع الديكارتي وإنما التباسات وغور الأمور. العقل ديّات وعطايا بما يضمن الفعل والتواصل وهو أيضا استحكامات وتماسكات بما يضمن البنية والعلاقة وهو أيضا شبكات والتباسات تبعا للوقائع المعقدة والتأويلات المتضاربة.

صدمة الواقع

نقول على سبيل اللعبة اللغوية والمفهومية أنّ اللاعقل ليس هو الخيال أو الميتافيزيقا أو الخرافة وإنما هو الواقع. الواقع هو اللاعقل، هو نفي للعقل أي ليس هو العقل، وإن كانت بينهما جدلية ضمنية عبر عنها هيغل بالمقولة «كل ما هو عقلي فهو واقعي وكل ما هو واقعي فهو عقلي». لكن ما هو لاعقلي فهو أيضا واقعي (الشرّ، الصدمة، الإرهاب) وما هو غير واقعي فهو عقلي (الخيال، الحلم، الهاجس..). اللاعقل يتواجد في صلب الواقع، فهو الوجه الأكثر بشاعة وسقوطا عندما يصبح الواقع قهر للحريات واستعباد الإنسان من طرف الإنسان واستظهار اللاإنسانية القابعة في غياهب السلوك الإنساني. قد نعتقد أن اللاعقل أو اللامعقول هو الخرافة أو الأسطورة أو الهرطقة. هذا صحيح على المستوى المعرفي لأن الخرافة أو الأسطورة لا تجد أعيانها في الواقع وخطابها الأسطوري لا يتطابق ذهنيا ومعرفيا مع الواقع المشهود. فهي تتحدث عن كائنات ما ورائية أو أحداث مقدّسة تفتقد إلى المصداقية الواقعية.

لكن لامعقولية الخرافة أو الأسطورة هي من قبيل تحصيل الحاصل، لأن قوام العقل هو المنطق وعدم التناقض، أما نظام الأسطورة فهو الحدث المقدّس والوقائع الماورائية المتناقضة. فماذا لو كان الواقع هو اللامعقول؟ عندما نتحدث عن صدمة

الواقـع فـإن الأمـر يتطلـب تذهن عظـم الكارثـة وجدية المـأزق. في الواقـع إننا إزاء أحـداث ووقائع غالبا ما ننعتها بالأهوال والفظائع عندما يتعلق الأمر بحروب ومذابح ونزاعات لا تخرج منها «إنسانية» الإنسان سالمة ومعافاة. يختزن الواقع على ما ينفيه بالذات. فهو إذ يقدّم لوحة واقعية عن الكثرة المشـهودة في مسـرحه وهي كثرة تصبو إلى الانسجام والتناغم مع الطبيعة أو القانون الكوني، فإنه يكشف في الوقت ذاته عن معضلاتـه ومفارقاتـه: معضلات بنيويـة كامنة في طبيعة الواقع الذي هـو بطبعه متنافر ومعقّـد وتنخـره التناقضات وإرادات القـوة والهيمنة. هذا ما نحاول سـبره في مبحثنا الأول حول العقل والسياسة والموسوم «الواقع أمام تحديات اللامعقول».

فـلا مـراء أن خطـاب العنف والنبـذ وإرادات السـيطرة والنفي تشـكّل كلها مادة الواقـع ومسـحوق الانفجـار في الاجتمـاع والسياسـة والاقتصاد. ألا يشـكل الخطاب السياسـي المعاصـر ذهنيـة ترتمي في أحضـان الترهيب والتخويـف والحديث بأبجدية الصـراع والصـدام حتى بات هذا الخطاب في عصـره الحجري لم يغادر تربة النزوات البدائية والانفعالات الهستيرية؟ لكن من السذاجة القول بأن لامعقولية الواقع هي نتاج الخواء في المعنى والانحطاط في القيمة كما يبدو للوهلة الأولى. واقعنا اليوم ممتلئ إلـى حدّ التخمة، ممتلئ بأسـاليب المعنى في الشـعائر الدينيـة والمنظومات الأخلاقية وبأنمـاط القيمة في المنجـزات العلمية والذخائر المعرفية. فلأنـه ممتلئ بألوان التعبير عن الحقيقة باسـتحواذها والترهيب بها ينقلب إلى نقيضه فتتحوّل الاكتشـافات العلمية إلى هيمنات متنامية في احتكار آلة الدمار الشامل (السلاح النووي والكيماوي) وخلق الوحـوش الضارية (التعديل الوراثي)، وترتد الفتوحات الاقتصادية والتنموية إلى إرادة في تغذية الجشـع وتحويل شـريحة العمّال إلى قطيع من العبيد، وتصبح القيم الدينية والعلمانيـة ورمـوز التنوير مجـرّد أدوات في الترهيـب والتكفير ونفي الآخر بنرجسـية الذات.

هـذه المشـاهد تدلّ علـى امتلاء في المعنـى والقيمة والحقيقة ومـن فرط الامتلاء والارتواء يزداد التعطش لإرادة السلب والنهب وعقلية النبذ والتصفية. والأشكال مختلفة تتـراءى فـي الحروب والفظائع أو تجليات الشـرّ في العنصر البشـري وتتبـدّى أيضا في المعاداة الخفية أو الجلية للأجنبي (أليس الأجنبي في العقل اللغوي مرادف للجنابة أي ما يسـتدعي التطهير والتصفية؟) حيث يمثل التطرف العنصري والديني أسـمى تجلياتها.

أمام هذه المعضلات الوجودية والوقائع التيراتولوجية (الوحشية) بأية لغة يمكن مقاربة الواقع وفهم مفارقاته وتفادي إفرازاته السلبية؟

غالبا ما نواجه الوقائع بثنائيات مانوية هي حصيلة تركيبتنا الذهنية واللاشعورية في فصل الحقائق إلى خير وشرّ أو جمال وقبح أو حسنة وسيئة. وهذا حال الأنا الذي يستلزم منطقيا ووجوديا الآخر أو الهوية في علاقتها الملتبسة بالغيرية. ما يحجبه الخطاب الثنائي والمانوي حول الأنا والآخر هو أنّ «الأنا» هو «آخر» الآخر ولا يمكن اختزاله إلى مجرد هوية خالصة لا تنطبق عليها مقولات الغيرية والأجنبية والغرابة. ثمة لعبة مرآوية في الصراع الأصلي (قديم قدم الخليقة) بين الهوية والغيرية، حيث ترى الهوية ذاتها في مرآة الآخر، فيختفي الآخر بشطحة نرجسية تثبتها الأنا. وغالبا ما تكون العلاقة بين الهوية والغيرية نتاج أوهام واختلافات ذهنية، حيث لا نتعامل مع الآخر كما يتبدّى في شكله الواقعي (في إيجابياته وسلبياته) وإنما نصنع صورا تقوم مقامه إما على سبيل النفي والاستهجان بالتشكيك في نواياه والتضخيم من مخاطره، وإما على سبيل الانبهار والتقديس بهضم حداثته والصمت إزاء تجاوزاته.

غالبا ما تتبدى العلاقة بين الهوية والغيرية في شكلها الصراعي والكفاحي كما هو حال الإسلام والغرب، الثنائية التي استرعت اهتمام الباحثين في الندوات والملتقيات والمقالات والمؤلفات. فهل الثنائية بين الهوية والغيرية واقعة تاريخية أم مجرد فاجعة إنسانية؟ ما سكت عنه النقد التاريخي والاجتماعي حول هذه الثنائية هو ما تستظهره حفريات اللغة في أرضياتها التحتية. بهذا المعنى تختزن الهوية على نقيضها وهو الغيرية لأن «الهو» من الهوية لا يدلّ فقط على الذاتية والأنانية وإنما على أمر آخر يفلت من التحديد والنعت. والغيرية لو تأملنا جيّدا معقوليتها اللغوية لوجدناها تنطوي على ما يستبعدها بالذات، أي قيم الغيرة والأنفة وهي قيم ذاتية ونرجسية. هذه الحفريات اللغوية تكشف في خباياها عمّا أهمله النقد الاجتماعي والفلسفي في حصره لأوجه الهوية ونظائر الغيرية. والحفريات اللغوية تدل أيضا على قيم التناهي في سياسة العقل ومقاربة الهوية والغيرية. والتناهي لا يعني التماهي: فليس هو المطابقة الوجودية أو الإيديولوجية مع المعطى الذاتي أو السياسي. التناهي قيمة عملية وخلقية براغماتية. فهو يدل على الحدّ الوجودي والإقليم الذاتي. من شأن العارف بالشأن الثقافي أن يدرك تناهيه ليس كانغلاق مونادولوجي داخل جدران

المهنـة والتخصـص وإنما كوعي ذاتي بالحـدود والأقاليم ومجاوزة قسـريات الواقعة بانفتاح نقدي على أبجديات الممارسة الإبستمولوجية والتأويلية.

العديد من أصدقائي في الجزائر(من بينهم الروائي والأديب بشير مفتي ووحيد بن بوعزيز) اعترضوا على صيغة التناهي ناظرين إليها بمنظار الحصر واغتيال الإرادة وسـجن المثقـف داخـل دائرة التخصـص. الفهم الضيّـق لمقولة التناهـي انجرّ عنه تأويـلات خاطئة. مذهبنـا في التناهي هو من أجل مجاوزة حديـث النهايات (نهاية المثقـف، نهاية التاريخ، نهاية الدولة..) حتّى وإن كانت النهاية في الأصل مجازية، لأنه لا نهاية بدون بداية حيوية وخلاقة في دورة جديدة أو عود أبدي يكشـف عن الطابع الخلاّق لكل مقولة فلسفية. والتناهي هو أيضا من أجل الإقرار بأن الأقاليم الفكريـة أو الجغرافيـات العقلية ليسـت ملكيات فردية تحظر على العارف بالشـأن الثقافـي التجـوّل عبرها. للمثقـف الحق الطبيعـي والمدني والديمقراطـي في قراءة واقعه بأساليب نقدية متنوعة.

فالمشكلة ليست مع أقاليمه الفكرية التي يجوبها على سبيل الامتهان والامتحان، وإنمـا مع أقانيمه البطولية عندما يكون السـفر المعرفـي أو الهواية الفكرية اقتحام غير مشـروع داخل دائرة الخطاب والحديث باسـم الكل ليكون أولى بالناس من أنفسـهم يلغيهم بشـطحة نرجسـية ليكون في طليعـة التعبير والتفكير والتدبير. سياسـة الحقيقة تقتضـي الاعتراف المعقول والمسـؤول بالتناهي الوجودي والمعرفي. وهي مسـؤولية اضطلـع بهـا عدة كتّـاب في الفكر العربي المعاصر آثرنا الإشـادة بهـم والتعرف على موقفهم من صدمة الواقع وما هي مستويات قراءتهم للحدث والخطاب.

مستويات القراءة

غالبا ما نقرأ عند الأقلام المترددة أن التفكيك والحفريات وغيرها من القراءات الغربيـة هـي رؤى لا تعبّـر عن الـذات في سـياقها المعاصـر والذي تكتنفـه الضبابية فـي الرؤية والانحسـار في الاسـتراتيجية: التأويـلات والتفكيكات وغيرهـا من الرؤى والنمـاذج هـي غربيـة بقدر ما هـي غريبة، جـاءت لتفصل الـذات عن ترتبهـا التراثية ومعدنها الوجودي. في الواقع هذا الاسـتخفاف بما يسـمّيه البعض «علوم الآخر» ينمّ عـن رؤيـة ضيّقة وتوقّي غير مشـروع، لأن هذه القراءات والنمـاذج هي مجرّد أدوات

أو آليات في الحفر والنبش والعزل والتصنيف. فهل يعقل أن نلغي الآلة بمجرد أنها ليست من صنعنا وذكائنا؟ الحداثة المادية التي تبنّيناها بحذافيرها – على حد تعبير محمد أركون – اكتسحت نمط وجودنا ورؤيتنا وتفضح إرادتنا في نبذ علوم الآخر وتبنّي صناعاته ومنتوجاته، مع أن المادة هي أيضا نتاج الفكر، فما نستورده من مستهلكات مادية وخبرات صناعية هو أيضا استيراد للعقل الذي أبدعها وأنتجها. فنبقى في كلتا الحالتين رهائن النشاط الخلاق والمبدع للآخر والفتور المزمن للذات، ومن لا يبدع حاضره بإرادة فاعلة وقوة خلاقة يظل في موقع المنفعل والمتلقي.

من الأجدى مجاوزة الشعور الانفعالي والإحباط السلبي حول غزو غربي للذات لنرى في منتجات الغيرية آليات للتوعية ما دامت الذات تتخبط في دياجير الانفصامية والانتكاسية. ثمة وظائف ومقاربات من شأنها أن تنفث في روع الذات ما عجز وعيها أن يزرعه فيها. هذه الوظائف ليست بالضرورة «غربية» لتحاشي التصنيف والتجنيس وإنما هي كونية لمن يحسن قراءتها وإبداع مفاهيم وخرائط في المقاربة بشأنها. فالتفكيك والتواصل والنقد والتأويل لا تتماهى مع دعاتها أو قرائها، فليس دريدا هو الذي ابتكر التفكيك وإنما التفكيك أبدع دريدا ليساهم في إثرائه وتوسيعه. وليس هابرماس هو الذي ختم بتوقيعه على التواصل ليتماهى معه ويتحدث باسمه، وإنما التواصل صنع هابرماس كإمكانية في القراءة والتأويل وزارع حقول النقد والاجتماع والسياسة. فمن يتوهم بأن المنهج أو الرؤية تتماهى مع صاحبها فإنه لا يحسن ابتكار مستويات في القراءة واجتراح أساليب في الرؤية.

التفكيك والتأويل والنقد والحفريات والعقل التواصلي وغيرها من المناهج والآليات هي في متناول كل من يسكنه هوى القراءة والتنقيب يغني بها حقول تأويلاته وفضاءات مقارباته. فليس الآخر أولى من الأنا في ابتكار الأساليب الفلسفية والأدبية والسياسية. إذا استسلم الأنا إلى الكسل المعرفي والحديث بلغة الشكوى والتواكل، فإن الآخر ينتهز الفرصة في الحديث عن الواقع بلغة الخلق والابتكار وبمنطق الصناعة والتواصل. لكن ثمة نماذج في الفكر العربي المعاصر تمنحنا أروع مثال على إرادة النهوض المعرفي والاندماج في المشهد الفكري العالمي على سبيل المشاركة والتنويع. نماذج بختي بن عودة ومحمد أركون وعلي حرب دليل على الوعي بضرورة الانخراط في العمل الفكري بسياسة نقدية وتأويلية ناجعة.

فـلا نجد عنـد هؤلاء الكتاب مجرد قراءات انفعالية ومحاكاة سـلبية للرؤى والمناهج وإنما ابتكار فعلي لأدوات مفهومية في غاية الدقة والإتقان مثل الإسلاميات التطبيقية والمثقف النقدي عند أركون، والمنطق التحويلي والمجتمع التداولي عند علي حرب وغيرهـا مـن المقولات والتصورات التـي أصبحنا نتداولها اليوم علـى غرار المفاهيم النابعة من الفكر الغربي.

فهـذا يـدل علـى حيويـة فكرية في الإنتـاج والابتـكار. فهي بالطبع ليسـت في أذواق العديد من الكُتّاب وليست محل قبول وإجماع، لكن تكمن قوتها وفرادتها في صناعـة الواقعة الفكرية نصبو بواسـطتها إلـى مقاربة الواقع الزئبقـي الذي يكاد يفلت من حدوسـنا وسـيطرتنا. فرادة المفاهيم المنتجة في السـياق العربي تكمن في إرادتها الذاتية في مجاوزة المحنة بأدوات المهنة والتطلّع إلى آفاق واسـعة وفضاءات رحبة. فلا مراء أن خصوبة القراءات والتأويلات في الثقافة العربية المعاصرة دليل على وعي ذاتي في الأخذ بزمام النقد والتمحيص في مواجهة الأزمة وتخفيف الصدمة.

obeikandl.com